

المال وأخلاقياته في القرآن الكريم (القسم الأول)

أ. الطيب بن ابراهيم *

مقدمة

القرآن الكريم كتاب سماوي، وهو كتاب عقيدة المسلمين ومصدر شريعتهم الأول، والقرآن لا يتوقف عند مخاطبة الإنسان بالعبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج، ويتوقف عند حياة الإنسان الدينية، دون مخاطبته بالمعاملات والتعاملات الدنيوية، بل يخاطب الإنسان بالمعاملات أكثر من خطابه له بالعبادات، فإعمار الأرض يتم بالتعاملات والمعاملات، فهو يخاطبه بلغة حياته اليومية، وبلغة محيطه الذي يحيط به، فبعد أن أمر الإنسان بتوحيد الله الواحد الأحد، أمره بأداء العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج، ثم أمره بالعمل في إعمار الأرض وتنظيم شؤون حياته الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والكونية والتدبر في شؤونها.

وقد لا نستغرب عندما نجد القرآن الكريم يذكر الصلاة أقل من مائة مرة، والزكاة اثنتين وثلاثين مرة، والصوم أربع عشرة مرة، والحج اثنتي عشرة مرة، بينما يذكر المال بمختلف أسمائه ومسمياته مئات المرات.

فالقرآن ذكر المال ستاً وثمانين مرة، وذكر الرزق مائة وثلاثاً وعشرين مرة، والملكية ثلاثاً وتسعين مرة، والمكتسبات سبعا وستين مرة، والمتاع خمسا وثلاثين مرة، وكل هذه الأسماء المالية ذكرت أكثر من نظيراتها من العبادات، بالإضافة لذكر القرآن لكثير من أوجه ومكونات النشاط المالي كالبيع والشراء والقرض والدين والعقود والدينار والدرهم ورؤوس

* أستاذ باحث، الأبيض سيدي الشيخ -الببيض-

الأموال والأسواق... فالمال ركن ركين في حياة الأفراد والشعوب والأمم لذا أولاه الإسلام في كتابه القرآن مكانته وحدّد إطاره ووضع ضوابطه لأهميته في البناء والتعمير وإحقاق الحقّ.

فالإنسان لا تأخذ منه العبادات إلّا قليلا من الوقت، فالصلاة لا تأخذ منه إلّا بعض الدقائق في اليوم، والزكاة والصوم يؤديان مرة واحدة في السنة، والحج مرة واحدة في العمر، بينما الانشغال بالمال وشؤونه يمتد على طول العمر وعلى مدار الساعة، فالناس عادة ما ينشغلون بأموالهم رغم سعة أوقات العمل بها عن أداء عباداتهم رغم محدودية أوقاتها.

إن من مقاصد الشريعة الحفاظ على المال كالحفاظ على الدّين وكالحفاظ على النفس فلا إفراط ولا تفريط، فمن مات دون ماله فهو شهيد، ومن بذر ماله فهو من إخوان الشياطين.

إن من أكثر أخلاقيات التعامل في القرآن هي الأخلاقيات المالية والاقتصادية، فهي أخلاق فطرية أجمع عليها النقل والعقل، وأخلاق القرآن كانت هي أخلاق الرّسول (صلى الله عليه وسلّم) كما أخبرت بذلك عائشة (رضي الله عنها). واليوم نرى من حولنا في عالمنا الإسلامي، وعلى رأس أولويات مشاكله وأزماته الاقتصادية مشكل الفساد المالي والإفلاس الاقتصادي، ووجودهما هو نتيجة حتمية للفساد الأخلاقي في التعاملات المالية والاقتصادية من سرقة واختلاس ورشوة ونصب واحتيال وغش، وتبذير وتزوير وغياب الكفاءة والنزاهة، وهذا الفساد يتعارض مع أخلاقيات الإسلام الاقتصادية ومع مقاصد الشريعة الإسلامية.

تعريف المال

المال لغة يُطلق على كل ما يملكه الإنسان وحازه بالفعل من كل شيء، أما ما لم يملكه الإنسان ولم يدخل في حيازته بالفعل فلا يعد مالا في اللغة.

وجاء في معجم ألفاظ القرآن أن المال هو ما يملك من الأعيان كالذهب والفضة والحيوان والدار والشجر، وأكثر ما كان يراد بالمال عند أهل البادية الإبل فيقول القائل منهم خرجت إلى مالي، يريد إبله¹. ويُعرّف ابن الأثير المال بأنه في الأصل ما يملك من الذهب والفضة وعلى كل ما يقتنى ويملك من الأعيان، وأشهر ما يُطلق عليه المال عند العرب هي الإبل لأنها كانت أكثر أموالهم.

وجاء في لسان العرب أن المال هو ما ملكته من جميع الأشياء، والجمع أموال، ومال الرجل يمول ويمال مولا ومؤولا إذا صار ذا مال، وتصغيره مويل، ورجل مال أي ذو مال، وقيل كثير المال، ويقال مال وميّل على وزن فعل وفيعل²، وفي القاموس المحيط، المال هو ما ملكته من كل شيء سواء كان عينا أو منفعة، فهو الشيء الذي يحوزه الإنسان بالفعل حيث ينفرد به عمّن سواه، والمال شرعا هو ما كان قيمة مادية بين الناس وجاز الانتفاع به شرعا في حال السعة والاختيار، ويشمل المال أعيان الأشياء كالذهب والفضة والأراضي والسلع التجارية وآلات المصنع والمنفعة كجهد الطبيب والمهندس والمعلم، ولا يشمل المال مالا قيمة له في نظر الناس لتفاهته، ولعدم حاجتهم إليه، والشيء لا يكون مالا إلا بدليل شرعي يميز الانتفاع به، فالأعيان والأشياء والمنافع التي يرغب الإنسان فيها ولم تبجحها الشريعة لا تعد مالا كالخمر والخنزير وكجهد العرافين والمشعوذين.

أنواع المال

الرزق: ذكر الرزق في القرآن بكل صيغة مائة وثلاثا وعشرين مرة، فرزقه يرزقه رزقا أعطاه من الخير، ورزق الله الخلق يرزقهم رزقا أعطاهم من فضله سواء أكان ذلك في الدنيا أم في الآخرة، والرازق يقال لخالق الرزق ومعطيه والمسبب له وهو الله تعالى، ويقال للإنسان الذي يصير

1. "معجم ألفاظ القرآن". ج 2، ص 667 - 2. ابن منظور، "لسان العرب"، ج 3، ص 550.

سببا في وصول الرزق، والرزق اسم لما يعطيه الله وينتفع به، ويوضع موضع المصدر وكل ما هو من المعنى المصدري يصح أن يكون من المعنى الأول وهو ما يعطيه الله وينتفع به¹.

الملكية: ذكرت الملكية في القرآن بكل صيغها في ثلاث وتسعين موضعا، ومعنى ملكه يملكه ملكا أي استولى عليه وكان في قدرته التصرف فيه كما يريد، يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء، ويكون ذلك في الأعيان والمعاني، ومن ذلك ملك الله سبحانه وتعالى السمع والبصر والموت والحياة، فهو يتصرف فيها بما يشاء سبحانه تصرف المالك في ملكه، ويقال ملك الشيء ملكا وملكا قدر عليه واستطاعه، ومن هذا يقال لا أملك هذه الدار، ويقال ملك مفاتيح البيت أو الخزانة لغيره أي كان له حق التصرف في البيت أو الخزانة، وملك الناس ملكا كان له التصرف فيهم بالأمر والنهي والسيادة عليهم².

الكسب: ذكر - كسب - في القرآن سبعا وستين مرة، فكسب المال ونحوه يكسبه كسبا أي جمعه وحصله، واكتسب الشيء أي حصله بشيء من العناء والمشقة، يقال اكتسب المال واكتسب العلم، واكتسب الذنب. ومن معاني الكسب أن يكون في الخير المشروع، وأما الاكتساب فيكون في الشر والشيء غير المشروع، ومن معاني الكسب أيضا يشمل ما يقوم به الإنسان من فعل خير وجلب نفع إلى غيره بالطريقة المشروعة وهذا له ثوابه³.

المتاع: ذكر المتاع في القرآن خمسا وثلاثين مرة والمتاع هو ما تستطيعه النفوس في هذه الحياة ويأتي عليه الفناء، كالمال والولد وأكثر ما يستعمل في المشتريات. والمتاع ما ينتفع به ويؤدي به بعض الحاجات كالثوب والماعون والآلة وجمعه أمتعة⁴.

1. "معجم ألفاظ القرآن"، ج 1، ص 492 - 2. "معجم ألفاظ القرآن"، ج 2، ص 650.

3. نفس المصدر، ج 1، ص 498 - 4. نفس المصدر، ج 2، ص 608.

النعمة: الخير يصل إلى المرء في دينه أو دنياه، فالمال نعمة والجاه نعمة والإيمان نعمة والسمع والبصر نعمتان، والعلم والحكمة نعمة والقرآن نعمة، وجمعها نعم وأنعم، و النعيم كل ما يتلذذ ويتنعم به الإنسان من مطعم ومفرش ومركب وغير ذلك¹، والنعمة تتجاوز حدود المال لتشمل ما لا يعد ولا يحصى، والمال بعض من النعمة، وهو نعمة من أهم النعم.

فالممتلكات والمكتسبات والأرزاق والأمتعة ما هي في حقيقتها إلا أسماء ومسميات لأموال الإنسان ولما يملكه ويحوزه بالفعل وينتفع به في حال السعة والاختيار من الأعيان والمنافع بالإضافة إلى جواز الانتفاع به شرعا.

فالقرآن تكلم عن المال وعن أهميته ودوره في الدنيا والآخرة، ولم يتكلم عليه باسم واحد أو باسم المال فقط، بل ذكر كل الأسماء المستعملة وكل المسميات الموجودة في حياة الإنسان والمنتفع بها، فالأرزاق مال والممتلكات مال والمكتسبات مال والمتاع مال، والدينار مال والذهب والفضة مال والتجارة مال والدين مال والأنعام مال... وبالإضافة إلى ذلك، تعرض القرآن لأوجه النشاط المالي المتعددة والمتنوعة والتي يخوضها الإنسان في حياته، فذكر البيع والشراء أربعاً وثلاثين مرة، والتجارة تسع مرات، والصناعة عشرين مرة، والزراعة أربع عشرة مرة، والقرض ثلاث عشرة مرة، والذهب والفضة ثمان مرات والدين ست مرات...

الأشكال المالية ومواردها في القرآن

المال: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾²، ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾³، ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ...﴾⁴، ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾⁵.

1. "معجم ألفاظ القرآن"، ج 2، ص 734 - 2. سورة الفجر، الآية 20 - 3. سورة الكهف، الآية 46.
4. سورة الهمزة، الآية 2 - 5. سورة التوبة، الآية 24.

الرزق: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ...﴾¹، ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ...﴾²، ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً...﴾³.

الممتلكات: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ...﴾⁴، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا...﴾⁵، ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي...﴾⁶.

المكاسب: ﴿أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾⁷، ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾⁸، ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾⁹.

المتاع: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾¹⁰.

الذهب والفضة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا﴾¹¹.

رؤوس الأموال: ﴿وَإِنْ تَبْتِمُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾¹².

الدينار: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ...﴾¹³.

الدرهم: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ...﴾¹⁴.

الصناعة: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ...﴾¹⁵.

الزراعة: ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ...﴾¹⁶.

التجارة: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُوهَا﴾¹⁷، ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ

تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ...﴾¹⁸.

1. سورة النحل، الآية 71 - 2. سورة الرعد، الآية 26 - 3. سورة فاطر، الآية 29 - 4. سورة النور، الآية 61 - 5. سورة الإنسان، الآية 20 - 6. سورة الإسراء، الآية 100 - 7. سورة البقرة، الآية 267 - 8. سورة غافر، الآية 82 - 9. سورة المسد، الآية 2 - 10. سورة آل عمران، الآية 14 - 11. سورة التوبة، الآية 34 - 12. سورة البقرة، الآية 279 - 13. سورة آل عمران، الآية 75 - 14. سورة يوسف، الآية 20 - 15. سورة الشعراء، الآية 129 - 16. سورة الواقعة، الآية 64 - 17. سورة البقرة، الآية 282 - 18. سورة النساء، الآية 29.

- البيع: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا...﴾¹.
- الشراء: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ...﴾².
- الكيل: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ...﴾³.
- الميزان: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ...﴾⁴.
- الإيجار: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ...﴾⁵.
- القرض: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾⁶.
- الدين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾⁷.

أخلاقيات التعامل المالي في القرآن

الأخلاق في معجم ألفاظ القرآن هي السجية والطبع وما يجري عليه المرء من عادة لازمة⁸، وفي لسان العرب الخلق والخلق السجية، والخلق بضم اللام وسكونها هو الدين والطبع والسجية، والجمع أخلاق ولا يكسر على غير ذلك، وحقيقته أنه صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمتزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة والثواب والعقاب متعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة⁹، وفي حديث عائشة (رضي الله عنها) أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "كان خلقه القرآن"، أي كان متمسكا به وبآدابه وأوامره ونواهيه وما يحمله من المكارم والمحاسن والألطف، وخالق الناس عاشرهم على أخلاقهم¹⁰. ويعرف

1. سورة البقرة، الآية 275 - 2. سورة يوسف، الآية 20 - 3. سورة الإسراء، الآية 35. 4. سورة الإسراء، الآية 35 - 5. سورة القصص، الآية 27 - 6. سورة التغابن، الآية 17 - 7. سورة البقرة، الآية 282. 8. "معجم ألفاظ القرآن"، ج 1، ص 375 - 9. ابن منظور، "لسان العرب"، ج 1، ص 889. 10. أحمد الشرباصي، "موسوعة أخلاق القرآن"، المقدمة ج 1، ص "ط".

أبو حامد الغزالي الأخلاق بأنها عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا. وهناك فرق بين الخلق والتخلق، فالأخلاق سجايا وطباع، ولكن التخلق تكلف من الإنسان يحاول به أن يظهر من أخلاقه خلاف ما يبطن¹.

والأخلاق الإسلامية هي المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني والتي يتميز بها المسلم، ويحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان². والنظام الأخلاقي هو جوهر الإسلام وروحه السارية في جميع جوانبه والدين حسن الخلق³. وهناك من يعد الدين هو الأخلاق الكريمة، والأخلاق الكريمة هي الدين وهذا ما دفع ابن عباس لتفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي على دين عظيم، ويقول ابن القيم الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين، وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) المثل الأعلى في مكارم الأخلاق، وهو القائل: أدبني ربّي فأحسن تأديبي، وتحلّي بأخلاق القرآن، ولقد سأل هشام بن حكيم السيدة عائشة (رضي الله عنها) عن خلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأجابت بقولها: "كان خلقه القرآن"⁴.

لقد عدّد أحمد الشرباصي في موسوعته "أخلاق القرآن" بأجزائها الستة مائة وواحدا وثلاثين صفة خلقية في مختلف المجالات الدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية وغيرها. ومن أهم العلاقات بين الأفراد والشعوب والأمم بالدرجة الأولى العلاقات المالية والاقتصادية، ولأولوية

1. أحمد الشرباصي، المصدر السابق، ص "ي" - 2. مقدار يالجن، "الاتجاه الأخلاقي في الإسلام"، ص 47 - 3. مقدار يالجن، نفس المصدر، ص 48 - 4. أحمد الشرباصي، مصدر سابق ص "ي".

هذه العلاقة عن غيرها أولها الإسلام عناية خاصة، وجعل أخلاق المعاملات والتعاملات المالية والاقتصادية من أكثر الأخلاق تداولاً في القرآن، فالنظام المالي هو نظام خلقي بالدرجة الأولى في مراعاته ومعالجته لكيفية الحصول على المال وكيفية إنفاقه، ابتداءً من مصادره إلى غاياته.

فكسب المال في الإسلام لا يتم بالاحتيال والغش والتزوير والسرقة والاختلاس والرشوة والربا والاحتكار والتآمر والظلم والتجبر والتطفيف والسؤال والفسوق والفجور، بل يكون كسباً حلالاً طيباً بالعفة والطهارة والوفاء والأمانة والصدق والتراضي، وهذه الأخلاق الفاضلة ترددت كثيراً في القرآن في كل مناسبة وعلى قاعدة: وأحل الله البيع وحرم الربا، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، وأوفوا الكيل والميزان، وأوفوا بالعقود، ومن غشنا فليس منا. والمال الذي كان كسبه شرعياً حلالاً طيباً يشدد الإسلام على حرمة وعلى رعايته وحمايته، فالحفاظ على المال كالحفاظ على الدين، والإسلام يرفض التقدير والتبذير، ويرفض الشح والبخل، فلا إفراط ولا تفريط، ويأمر في الوقت نفسه بالإنفاق والإحسان لفعل الخير ودعمه والإنفاق لوقف الشر ودحره، ولا يكون ذلك إلا ابتغاءاً لوجه الله، ويرفض إنفاق الشكر والجزاء، وإنفاق المنّ والرئاء.

إن إنفاق المال في الإسلام ككسبه له ضوابطه الخلقية وقواعده العملية والشرعية، فالأخلاق في الإسلام هي دين والدين المعاملة، ولا دين لمن لا أخلاق له، والمال مال الله، وهو أمانة، والناس مستخلفون فيه، والإنسان يجب أن يكون أميناً على هذا المال المستخلف فيه، فعلى الخليفة أن يكون أميناً فيما استخلف فيه، ملتزماً بأوامر ونواهي مالكه، فعليه أن ينفق مال الله المستخلف فيه في وجوه الخير للناس، فأقرب الناس لله أنفعهم لخلقه.

عدّد القرآن مصادر كسب المال وجمعه، فذكر البيع والشراء، والزراعة والصناعة والتجارة، وذكر الإيجار والدين والقرض، والقاعدة الأساسية في كل

كسب للمال هي ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، فالغاية في الإسلام ليس الحصول على المال بل هي كيفية الحصول على المال، والمال الشرعي هو المال الحلال، وليس كل مال حلال، والقرآن بقدر ما شدد على العمل ونهى عن الكسل بقدر ما شدد على الإنفاق وجعله غاية جمع المال، ونهى على البخل والشح والاكتناز، ونهى أيضا عن إنفاق الإسراف والتبذير والتقتير، والهدف دائما من وراء ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى، بدون من ولا رياء، والإنفاق بهذا الشكل والإحسان والتواضع والشكر والإيثار هو إنفاق أخلاق الإسلام.

إن ضوابط وأخلاق القرآن السماوية حددت علاقة التعامل بين جميع فئات وأفراد المجتمع، بين الغني والفقير، بين الأجير وصاحب العمل، بين البائع والمشتري، بين الدائن والمدين، بين المنتج والمستهلك، فالإسلام نصب للإنسان مقياسا خلقيا في كل خطوات ومراحل جمع المال وهو رضا الله تعالى، فليس كل ما تفرضه المصلحة الشخصية هو جائز شرعا، وكل ما يؤدي لخسارة شخصية هو محرم، فالمقياس الخلفي الذي توزن به جميع الأعمال هو رضا الله¹.

إن القيمة العليا للأخلاق هي الخير ويقابلها الشر²، وليس القيمة العليا في الإسلام هي المال، فالمال في خدمة وصيانة الأخلاق الكريمة، وبذله دونها واجب، وليس العكس صحيحا، والأصوليون قالوا [الغاية لا تبرر الوسيلة]، واتخذوا من ذلك قاعدة شرعية لهم³، ولا يستهان بأهمية الوسيلة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁴.

1. محمد باقر الصدر، "فلسفتنا"، ص 39 - 2. مقداد يالجن، مصدر سابق، ص 300 - 3. مقداد يالجن، نفس المصدر، ص 297 - 4. سورة المائدة، الآية 35.

إن الأخلاق في الإسلام يجازى ويعاقب بها، فهي مناط الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، فالناس في الإسلام يثابون ويجازون لحسن أخلاقهم ويعاقبون لفسادها: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾¹. فالإسلام يعارض تحقيق نزوات الإنسان وأنانيته الشخصية على حساب الآخرين، فالمال مال الله ليس غاية يبرر الوصول إليها باستعمال كل الوسائل على حساب المسحوقين والمظلومين والمغفلين والمغلوبين على أمرهم، ولا على حساب القيم والأخلاق، ولا ينفق المال ترفاً وفسوقاً وتبذيراً، فالأخلاق هي الإطار الصحيح الذي يؤدي فيه المال دوره ورسالته، وهي الإطار الصحيح الذي يؤدي فيه الدين دوره، والإطار الصحيح الذي يؤدي فيه العلم دوره، فالأخلاق في الإسلام غاية تتعدد وسائلها، والمال ليس غاية في حد ذاته، فهو وسيلة لتحقيق الغاية، يستعمل في البناء والإعمار، في بناء المدن والقرى، والمدارس والمستشفيات والجسور والسدود، وإقامة المصانع وإصلاح الأراضي للزراعة، ويستعمل في استرداد الحقوق وتحرير الأوطان، ويستعمل في أداء العبادات كبناء المساجد وإخراج الزكاة وأداء الحج، ويستعمل في البر والمعروف وأوجه الإحسان، وينفق على الفقراء والمساكين والأيتام، وعلى المؤسسات والجمعيات الخيرية.

وإذا كان الإنسان يحب الخير لشديد، ويحب المال حباً جماً، فهو جبل على ذلك، وهو من طبيعته، فجمع المال وعده وكره متأصل في الإنسان، لذا لم يخاطب القرآن الإنسان بحب المال وعده وكره ليلاً ونهاراً سرا وجهاراً قليلاً أو كثيراً، فالمسألة مفروغ منها وهي طبيعة بشرية، ولكن الغاية لهذه الطبيعة البشرية المتعلقة بجمع المال وكره وعده وكره هي التي أكد عليها القرآن وهي إنفاق المال في شئ أوجه الخير، فالتبيعة البشرية هي حب المال وتحصيله وليس هي إنفاقه!

1. سورة الإنفاطار، الآيات (13، 14).

فالمال وسيلة لتحقيق غايات دينية واجتماعية واقتصادية وأخلاقية وثقافية وحضارية، وغايته هي إنفاقه في هذه الأوجه، لذا ألح الإسلام على غاياته وليس على وسيلته، ألح على غايته وهي إنفاقه ولم يلح على كسبه وجمعه وكتره، فهو وسيلة مرتبطة بغايته، وغايته هي إنفاقه في أوجه الخير كلها المادية والمعرفية والأخلاقية، وتعددت الدعوة لإنفاق المال في القرآن في عشرات الآيات، وفي كل الظروف والأوقات، وبأي قدر كان، فيجب إنفاقه ليلاً ونهاراً، سرا وجهاراً، في السراء والضراء، قليلاً كان أو كثيراً صغيراً أو كبيراً كما تبين هذه الآيات:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾¹، ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً...﴾²، ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ...﴾³، ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً...﴾⁴.

فالمال في الإسلام ليس غاية يجب التوقف عندها بأي طريقة أو وسيلة كانت، ولا ينفق عبثاً وتبذيراً، فالإسلام يرفض العشوائية والإباحية واللامسؤولية في جمع المال وفي إنفاقه، ويدعو للانضباط والمسؤولية، ويعارض حرية إباحية الكسب والإنفاق كما يعارض الحرية الإباحية لتحقيق نزوات وشهوات الأجساد، حرية من فهاهم نبيهم عن سوء أخلاقهم المالية: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾⁵ أجابوا: ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾. فالإسلام يرفض منطق أن نفعل في أموالنا ما نشاء، كما يرفض قول من يقول أو أن نفعل بأجسادنا ما نشاء أو أن نكتب ونرسم بأقلامنا ما نشاء! فالحرية التي تخرج عن حدود الشرع والأخلاق انحرفت وخرجت عن إطارها الصحيح، فالإسلام يحدد المصدر والاتجاه والهدف، وهنا يرقى

1. سورة البقرة، الآية 274 - 2. سورة فاطر، الآية 29 - 3. سورة آل عمران، الآية 134.

4. سورة التوبة، الآية 121 - 5. سورة هود، الآية 85.

الإسلام ويسموا بالإنسان عن عالم المادة والغرائز وعبودية الدينار والدرهم،
والتعصب الأناني، واتباع التروات البهيمية، ليجعل من الإنسان كائنًا مكرمًا،
صاحب إرادة واختيار وقرار ومسؤولية ليختار بين النجدين الحلال
أم الحرام. فالأخلاق في الإسلام هي جزء من العقيدة الإسلامية، فلا دين
لمن لا أخلاق له، وهي مظهر من مظاهرها، وتصديق وعمل بأوامرها
ونواهيها، وحلالها وحرامها، وقواعدها وضوابطها.
